بعد حزن الثقافة المرير

تعقيب الأستاذ ياسين طه حافظ على مداخلات الأساتذة ومناقشاتهم للأفكار الواردة في سلسلة مقالاته "حزن الثقافة المرير" على طاولة المدى الثقافية في صباح الأربعاء ٢٠١١/١١/٣٠.

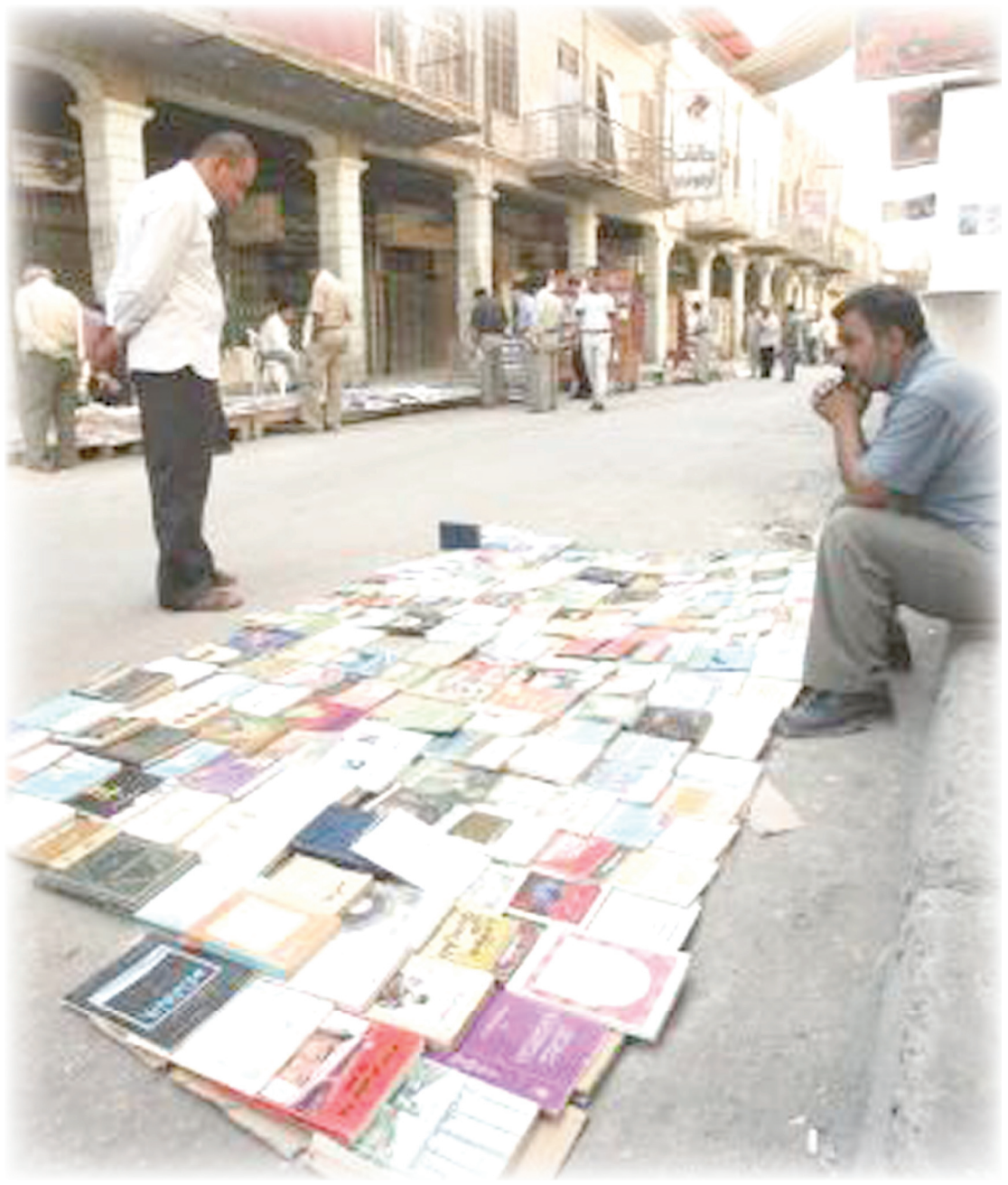

ياسين طه حافظ

أساتذتي شكراً لكم. استمعت لأفكاركم ومشاعركم. سعيد، سعيد جدا بما سمعت. لقد كان ذلك غرضي من كتابة تلك المقالات، أن أثير اهتمامكم بمتاعبنا الثقافية- السياسية. كان الكلام مفيدا ومكملا، معدِّلاً ومُضيفاً اضاءات. شكراً لمن أبدى رأياً وأسهم في الحوار المخلص والحميم.

نعم، أيها الأصدقاء، وكما قال احد الأخوة، أردت أن أنصف الجميع، لكن عتبت في الورقة على الجميع أيضاً. الإبادة جريمة قانونية وأخلاقية ضد أي طرف كانت. فأنا ضد "أبيدوهم" للشيوعيين وضد "الاجتثاث" للبعثيين وضد الملاحقات الدموية الشرسة للإسلاميين من حزب الدعوة وسواهم. الجريمة للقانون واحترام الأفكار في كل حال مطلوب.

قيمة وأساسية ملاحظات الأستاذ د.حسان عاكف. ولمزيد من الإيضاح لكلامي، أقول نعم، كان الخطاب السياسي العراقي شتائمياً الحكومة الملكية بدأته في إعدام مؤسسي الحزب الشيوعي العراقي، بدأته بشتيمة، فهم يحملون أفكارا هدامة وهم عملاء. واستمر الخطاب بعد ذلك بهذا النهج مارسه الشيوعيون العراقيون بتعابير الرجعية العميلة والإقطاع العميل والمتخلف والمأجور ...الخ ومارسه البعثيون بكراهة شديدة. وهكذا فالشيوعيون عملاء موسكو وأولاء يرون البعثيين عملاء أميركا وهكذا اخذ كل حصته من هذا الكرم السياسي.

ملاحظة الأستاذ عاكف بان القيادات هي المقصودة، أقول، لكن هذه الإدانات والشتائم كانت وما تزال تلاحق الناس في الشارع وماتزال الجماهير حتى اليوم تدفع ثمنها وحتى إذا قصدنا القيادات، فالاحترام مطلوب في الخطاب السياسي. كيف نشتم أحدا ونتفاهم معه؟ أما ملاحظاته الأخرى فهي حصيفة ومهمة. معه بوجود الاختلاف في الأفكار. شكرا لتصويبه ودقّته في التشخيص، لكني أردت المشترك الوطني للشعارات والنوايا. أيضاً: أسعدني الأفق الجديد الذي تتمتع به الكوادر المتقدمة للحزب اليوم.

وراء هذه المداخلة شعور عال بالمسؤولية عن حاضر الحزب ومستقبله، فيها دفاع مخلص عن واقعه .. وهو جوهرياً دفاعنا عنه أيضا. كلامي في الورقة كان انطلاقا من الدور التنويري العظيم والواسع الذي قام به الحزب في العهد الملكي واستبساله في الحفاظ على تقدمية تموز مما جعله يتعرض لزوبعة شرسة وغير عقلانية كانت مطلوبة إقليميا و"غربياً" لأسباب معروفة. انطلاقا من تلك المنطقة التنويرية تحدثت عن واقع الحزب الحالي بإزاء التحولات في الداخل وتطور الستراتيج الدولي من ناحية والتحولات الفكرية في العالم، وضمنها التحولات في الفكر الاشتراكي.

أعلم جيدا أن التجديد وإجراء التغييرات التي تتطلبها الظروف الجديدة ومنها "الثقافة الجديدة"، أمور ليست سهلة وليس سهلاً إقناع القواعد المعتزة بتاريخها النضالي. يتأخر عادة اقتناع الجماهير بضرورات التغيير. المنتمون الجدد يتقبلون ذلك بسهولة ومن دون متاعب، وهذه أمور نقدر أسبابها.

كانت مداخلة أستاذنا عاكف ضرورية للتوقف عند بعض طروحات الورقة ولإيضاح وتقديم بعض آخر منها. أود ان أقول لأستاذنا حسان عاكف إن تأكيدي على ذكر ما ورد في الورقة متأتٍ من قناعتي بأننا إذا افتقدنا الراديكال، سيفتقد البلد الروح النضالي للعصر وسيخمد فيه النزوع المستقبلي. وإذا افتقد العالم الراديكال، سيفتقد الروح الإنساني للتقدم التكنولوجي. قلت في لقاء، إن الماركسية، بين الفلسفات، هي الأكثر اهتماما بواقع الإنسان ومستقبله. وأعود الآن لأقول بضرورة "المعاصرة" للثقافة الحزبية وضرورة الثقافة الجديدة في النضال الوطني لجميع الأحزاب، من أساليب العمل الى الأهداف وهذا تماما ما أردته في قولي "أن يجدد الحزب خامته".

بقيت لي ملاحظة أخرى، وأنا اشعر بالخجل من ان أرد على أستاذ جليل القدر والمكانة النضالية، فأقول: إن الفكر الديني والقبلي لم يتقدم بسبب غياب المشروعين: القومي والماركسي، لكنه عمل على الإطاحة بهما ليحل بديلاً. فلطروحات الديني والقبلي جذور تتغلغل بعيدا تمت الإفادة منها وبتغذية خاصة ونعلم أن طروحاته لا تهدد كثيراً المصالح الكبرى ويمكن التفاهم معه عنها، كما يحصل الآن في عدد من البلدان العربية ولو انحسر المشروع القومي أولاً، وقبل المشروع الماركسي لما تقدم القبلي بسبب انقطاع الصلات لكن المشروع القومي يستند أساساً وعضوياً إلى القبلي وهو متطور عنه ويفسح له عادة مجالاً ليظل حياً، فما أن انحسر حتى حل الوريث الشرعي!

ملاحظات الأستاذ نجيب محي الدين: إنه ليست الأحزاب كلها مارست الشتائم في خطابها، أقول، وأنحني، نعم نعم، الوطن الديمقراطي وقبله الاستقلال. ملاحظة محترمة، معذرة عن التعميم وشكرا على إطرائه وإشارته لتاريخي... قراءته الدقيقة للورقة تحيل أي كاتب لأن يتوخى الدقة فالأخطاء الفكرية لها تبعاتها، والأخطاء السياسية تتشعب عادة أضرارها. اعتز به كثيراً وبأفكاره.

أقول: نعم، للأستاذ عقيل الناصري العسكريون هم حكام القسم الأكبر من تاريخ العراق الحديث، وإذا لم يكن عسكريا يُصَنَّعُ عسكريا برتب و"دناديش" أو بسلوك عسكري. والسياسيون يلوذون بالعسكر لحماية أنفسهم أو لدرء الانزلاق، فالقوة يا أستاذي هي الحاكمة لا العقل ولا الدستور.

الأخ الدكتور نجم عبد الله، شكرا، قد أكون أديبا ثقافيا. مطلوب التخصص بموضوعات أخرى ذلك مطلوب لكنه عسير وغير ممكن دائماً. ذلك بالتأكيد ضروري للتفكير، للتفكير بأفق واسع، كما هو ضروري للرؤية الأبعد. الباحث يحتاج عادة لمعرفة أسباب الظاهرة ومداها المستقبلي. هذا ما يجعل البحث جادا نحن هنا نشير إلى ما نستطيع الإشارة إليه. الظاهرة الواحدة تمس كثيرين وكل له انطباعه وفهمه.

أنا لم أتطرق إلى سلبيات المثقف، فأنا شخصياً لا أحب تعابير مثل يجب على أو ينبغي أو على المثقف أن ...الخ. لا أطلب من أحد ولا ألومه، بدلاً من ذلك أبدأ بنفسي أو ألومها. وإلا فهل من المعقول أن نطلب من الناس العمل أو التضحية ونحن بعيدون نتمتع براحتنا؟ حديثي كان عن الحجم المادي للثقافة بإزاء المؤسسات الصناعية والمالية وتحدثت عن علاقات مؤسسات غير سليمة تجعل المثقف يعمل في خدمة مؤسسة أو دولة لا يحبها ووصفت تلك الحال بالتراجيديا او المحنة الوجودية.

الأستاذ الشاعر إبراهيم الخياط تحدث بإيجاز ولكن بحرص شديد على العام وعن ملاحظته المهمة في إقصاء المثقفين وإقصاء المعارضة، أقول: في إقصاء المثقفين انحياز فكري وفي إقصاء المعارضة انحياز سياسي ودائما ما يكونان معا. ملاحظة عن محاولات الحزب الشيوعي للإفادة من الماضي، واحدة أساسية من ضرورات العمل السياسي. المراجعة مطلوبة من جميع الأحزاب والكتل مع التأكيد على الإنساني والمشترك الوطني، لكي لا تضيع جهود وعذابات المناضلين، مما اشار له بوضوح أكثر الشاعر ألفريد سمعان. أقول: نعم في المتاهات يضيع الجميع بلا استثناء وغض النظر عن الحقائق الموضوعية وراءه خسارات تدفع ثمنها الجماهير.

أوافق الأستاذ إبراهيم احمد على ملاحظته نفتقد دراسات معمقة للفردية الطاغية في العقلية العراقية. نعم هذا حقل دراسات، أنا قليلا بعيد عنه. أنا رجل أتحرك ضمن حدود عالمي الثقافي، لكني يا صديقي لا أرى الفردية وراء الظاهرة قدر ما أرى الفكر الإقطاعي في الثقافة السياسية واستمرارية الإزاحة والتوسع. معك في أمنيتك بمجتمع ديمقراطي. هي أمنية المثقفين وهي وراء مسعانا الصعب.

يرى الأستاذ العتابي، جمال، أن السياسي ضد المثقف. أقول هو ضد المفعل المضاد... هو ليس ضد الثقافة بوصفها ثقافة ولكن ضد المزيد من الحرية والمزيد من التقدم. السياسي يتحرك بالنفعية الآنية والمثقف بالفكر المستقبلي. أما أن المثقف يتسم بالحساسية الشديدة تجاه نفسه والناس فلا أظن مثقفا بغير هذه الصفة يظل مثقفا. أنا مثلك أتمنى ما تمنيت... كما ترون، نحن حتى الآن، لا نمتلك كل حريتنا في الكلام. فأنا مررت على بعض الأمور بخفة وحذر. وانتم أشرتم لها وعبرتم بحذر. هنا يكمن "حزن الثقافة المرير".

سعيد بحضور الأستاذ ضياء الشكرجي وشكرا على إشاراته الدقيقة شديدة التهذيب. هي مهمة ثقافيا، اشكره. يظل أملنا بالباحثين الجادين والبحوث الموضوعية الجديدة. معه أيضاً في أن كتابة البحث ممارسة خاصة، وأضيف خاصة مع مادة البحث وممارسة خاصة مع النفس. هي نضال صامت من اجل الحقيقة. نعم، من غير المعقول، أن نظل نسجل الشكوى ونشير إلى الظواهر. هذه كلها تحتاج إلى علم يكشف أسبابها والنتائج. الحاجة تظل قائمة دائمة للفعل الثقافي الفكري أو كما عبّر الشكرجي عن ذلك بلطف ومودة: "إلى عراك ثقافي..." أقول كل شيء يكون مقبولا، كل رأي وثقافة، حين لا يفارقنا احترام المختلف. واضح أن ذلك ما أراده وهو ما أردناه في الورقة أيضاً. نعم الأفكار تحتاج إلى التربية ليكون التطبيق سليماً، وهذا بصراحة ينقصنا في أحيان كثيرة.

شكرا للأستاذ رضا الظاهر وأقول موافقا نعم هو جدل الديمقراطية ونقص التنوير. وان كنت شخصياً لا أرى الارتباط وثيقا بين الديمقراطية والحرية. هذا إشكال لا مجال لمناقشته الآن. معك أيضاً في حاجتنا لبحوث معمقة للظواهر التي أشارت لها الورقة وشكرا لأنك رأيت فيها قضايا مهمة ازدادت أهميتها بإسهامكم، واترك التفاصيل والمتابعة للباحثين المتخصصين فأنا قدمت أفكارا وخواطر وانتباهات ثقافية وراءها شعور بالمسؤولية الأخلاقية والثقافية. أنا أديب، لستُ سياسيا، لست عالم اجتماع. أؤكد موافقا على ما أشرتَ اليه. وأقول: نعم الاكتفاء بالملحوظات خطأ علمي. وجلستنا اليوم لكي نستعين ببعضنا على الإشكالات الصعبة. معك في ضرورة التقاء المثقفين والباحثين في فرص مثل هذه. هي ما نحتاج إليه اليوم.

أضاء الأستاذ الظاهر منطقة كاملة يتداخل فيها منظور الثقافة بمنظور الدولة وما يلحقه الاستبداد بمضمون الثقافة، وقد أكد خضوع الثقافة للاستبداد . هذا الاستبداد في رأيي يتغذى من رأسمال مركزي في العالم. هذه الأفكار هي ما أملت من المداخلات ان تثيره او تؤكد عليه او تتوسع فيه. لقد قدم لنا الظاهر خلفية "علمية" لما وراء الظواهر ومنها ما أشارت له الورقة، انحسار دور الثقافة التنويري الى التعقيب اشادةً أو شرحاً او تسويغاً. لقد كانت مداخلته "التثقيفية" ضرورية ليتخذ الكلام طابعه العلمي.

للجميع احترامي. بكل الأفكار والملاحظات فرحي. شكرا للمدى التي هيأت لنا فضاء نظيفا ومدى للرؤية والتفكير. أخيرا أيها الأصدقاء، هل تعلمون بأننا حققنا انتصارا عظيما؟ نعم، اجتمع مثقفون، سياسيون من اتجاهات فكرية مختلفة على مائدة واحدة يناقشون بمحبة قضية ثقافية واحدة. لقد وضعنا حدا للدوائر المغلقة. لم يفكر احد بالجالس جوارَهُ إلى أي حزب ينتمي. هذه هي العافية. أتمنى ألا يفارق الود والمحبة كل حديث في الثقافة والأفكار. والى لقاء خيّر ونظيف مثل هذا اللقاء. شكراً

منطقة محررة

نجم والي

في زيارة معرض عن الطفل بيكاسو

لقد روّج بيكاسو ذاته أسطورة كونه طفلاً غير عادي "كان لي من العمر ست سنوات تقريباً أو ربما أصغر، كان هناك في صالون البيت تمثال لهرقل واقفاً على ركبته، هكذا جلست قبالته ورحت أرسمه.

ولكن لم تكن تلك رسومات طفل، إنما كانت رسوماً حقيقية". هكذا لفق بيكاسو القصة.

ولكن الحقيقة، أن الورقة التي رسم عليها تحمل التاريخ ١٨٩٠. الرسام الإسباني بابلو رويز لم يكن في السادسة، بل كان عمره تسع سنوات، كان سلفاً قد ملأ معظم الكتب المدرسية بالرسوم، أن مهارته التكنيكية مأخوذة عن الأب، الذي كان رساماً ومعلماً للرسم في مدرسة الفن في مالاغا (ملقا).

والمدربة بشكل صارم، كانت قد نضجت بدقة مضبوطة. منذ البداية كان يرسم، أكثر مما يتكلم، أشاعت الأم تباعاً. وعندما أصبح في الثالثة عشرة، ترك الأب وظيفته لكي يدعم نجاح ابنه. كان يرسم، قبل أن يتعلم القراءة.

"أن علاقته مع كل طفولته كانت متناقضة، لأنه هو ذاته لم يُسمح له أن يكون طفلاً"، يكتب مؤرخ الفن فيرنر شبيس، المتخصص المعروف ببيكاسو، الذي هو وراء تنظيم المعرض في صالة الفنون في هامبورغ، والذي يعطي صورة جديدة عن الرسام "الفحل": أكثر من ٢٠٠ عملاً من مراحل بيكاسو الإبداعية المختلفة، توثق "عالم الأطفال"، وكيف أن الرسام العملاق كان مع مرور الزمن يستعيد نظرة الطفل الغير حائرة.

لم يتابع أي رسام في قرننا هذا الموضوع بمثل هذه القوة، كما فعل بيكاسو، وهذا ما يؤكده المعرض لنا، فحتى في إنشاءات اللوحات التكعيبية المتشظية هناك ما هو "طفولي": هناك دوافع هوايةٍ طفولية في عمليات اللصق والكولاج، مضافاً إليها الاسترجاع الانفعالي للبدائية الجمالية، التي بعثتها التماثيل الأفريقية في بيكاسو.

لقد ظل الأطفال، وعلى مدى تطور الفن في قرننا، يخدمون فناني القرن كموضوع مواجه لعالم الكبار، وإن لم يتم الحديث عن هذا الموضوع بصوت عال. فعالمهم، غزير المشاعر، أحيانا عاطفي جدا، بريء، جدي وكله مشاركة في المشهد الذي يحويه. بيكاسو يصف في أكثر من مكان وبتعجب حيرتهم، عنفهم وألمهم. بنظرة باردة وريشة واقعية يطور بيكاسو الشاب من خلال صور الأطفال صورة إنسانية مليئة بالفقر والحزن. عميان وأطفال خُدج ومعوقون يطوفون فوق لوحات المرحلة الزرقاء. الأطفال هم أبطاله المفضلون. الرسام يخطفهم إلى عالم المشعوذين والبهلوانات في أصباغ ثخينة كالنقوش وفي ألوان وردية غالباً، في البحث عن الطفولة الضائعة (طفولتهم؟). ليس هناك أي من أعمال بيكاسو المبكرة يُذكر بشخبطة الطفل. الشقاوة أو بأشكال الرسم الأولى بدافع دراسي، والتي عادة ما تخلو من عفوية.

يكتشف بيكاسو طفولته أول مرة وهو في عمر الـ ٦٤. في زيارة لمعرض رسم للأطفال، الذي نظمه الجمعية البريطانية المحلية في باريس عام ١٩٤٥، يكتب "عندما كنت في سن هؤلاء الأطفال، كنت أستطيع أن أرسم مثل رافائيل. لقد استغرقت سنين طويلة حتى استطعت أن أرسم مثل هؤلاء الأطفال".

عندما أصبح بيكاسو أباً للمرة الأولى كان عمره ٤٠ عاماً، وكان يعيش مع أولغا كولوفا. باندهاش يتابع تطور ابنه باولو، وكيف يبدأ في اكتشاف العالم. حينها يبدأ في النظر إلى العالم من خلال عيون طفل، ولكن بالرغم من ذلك وحتى ذلك الوقت لم يكن في قدرته نقل ذلك إلى اللوحة.

يعلق بيكاسو على الهيئات غير المعروفة في لوحاته تباعاً: "هذا الطفل هو أنا بالذات. أما الآخر الذي ترونه أمامكم هو أنا الذي لم أعده منذ زمن طويل. أنني منذ البداية كنت شخصاً آخراً...." غالباً ما كان بيكاسو يخاف من تغريب أطفاله على اللوحات، وهو يبدأ بتوظيفهم كموضوع، عندما يتغير أسلوبه تماماً. حينها سيجلس ولي العهد باولو مقنعاً ومتصلباً، مثل شخصية ملك صغير.

بعد ١٥ سنة يرسم بيكاسو بارتباك طفلته مايا مع لعبة في يدها. بعدها يتشجع أكثر، فيبدأ برسم ابنته دورا مارا من حبيبته ماريا تيريزا، والتي يشعر بانجذاب قوي نحوها. كان عمرها سنتين، وكانت تشبه أبيها كثيراً: مليئة العود، وضخمة، تملك ذات النظرة الثاقبة لأبيها، حتى أنها تصبح الشخصية الرئيسة لأعماله.

عند نهايات الأربعينات يأتيه الطفلان : كلود وبالوما من علاقته مع فرانسواز جيلوت. السلوك العبثي للصغيرين يبعث في بيكاسو المسقوم في ذلك الوقت السرور. بشجاعة يكتب مازحاً "أنهما ليسا طفلان enfants، أنهما فيلان elephants! "، طبقاً لذلك يرسم بورتريه لهما من دون اضطراب. وعندما تستبدل بالوما ألعابها مقابل سيارات كلود ذات يوم، يستدعي بيكاسو الطبيب. كل شيء على ما يرام.

يطمئن الطبيب. وبعدها بمدة قليلة يظهر كلود بسياراته وبالوما بألعابها على إحدى اللوحات، التي اسمها "ألعاب ومطالعات".

رسومات في كراسة الأحفاد

شاكر مجيد سيفو

إلى أحفادي: نرامسين وآرام وبهرا

لابدّ للحرب أن تنزع رداء رائها
كي تتعانق الحاء والباء
في راء روضة الربّ.
××××

أحفادنا كانوا – دائما–
يقشمرون العالم
حين يدوّنون
ويرسمون
بماء ذكوراتهم أسماء
وصور الإمبراطوريين
على حيطان صفوفهم!!
×××

قبلة الله ،
في الأرض لكم كلكّم
لكن
– لمن – قبلته في السماء؟
×××

طوبى لك أيتها الأجساد
أعيادك محروسة وخالدة
في الأرض
وفي السماء!!
×××
طوبى للماء عيده ،
قدس وفوضى صبيان
هاربين من دشاديشهم كلّ خميس
من كل سنة.
×××

في شيخوختي ،
رأيت أصابعي
تنبش في حقول الجسد
هكذا أذن
رحت أدوّن بنخلتي
تأريخ الغيرة والحسد!!
×××

هل هذي أهازيج قديسات
أم فراشات وسط حديقتي؟
هذا ما أنبأتني به زهرة البيبون
×××

عم سعيدا في المرآة أيّها الجسد
إنّ لك أصدقاء أعداء في تأريخ
الحسد !!
×××
المطر سعيد بمخلوقاته
وهي كذلك سعيدة به
لكنها حين يكثر من لطماته
توبّخه وتزعل عليه
"فينكسر خاطره!!"
×××

مدير التحرير | رئيس القسم | مسؤول الصفحة | القسم الفني | قسم التصحيح